

## الشعر والحشيشة

لأول مرة في تاريخ الشعر العربي تظهر مادة الحشيشة المخدرة وأصبحت هذه المادة فنا من فنون الشعر، وموضوعا من موضوعاته. فكما كانت الخمر منذ العصر الجاهلي غرضا من أغراض الشعر، أصبحت الحشيشة منذ العصر الأيوبي غرضا كذلك من أغراض الشعر، وكان السبب في دخول هذه المادة إلى مصر وبلاد الشام هم رجال الصوفية. ولذلك سميت حشيشة الفقراء لأن الصوفية كانوا يسمون أنفسهم بالفقراء.

ويختلف المؤرخون في اكتشاف هذا المخدر، فبعضهم ينسب اكتشافها إلى فقير صوفي من خراسان يدعى الشيخ حيدرة المتوفى سنة ٦١٨ هجرية، وأن هذه المادة المخدرة كانت وقفا على رفاقه من الصوفية، ولم يشأ أن يذيع سرها في حياته. وأوصى أن تزرع على قبره بعد وفاته. ثم انتقلت هذه المادة بعد ذلك من خراسان إلى العراق بعد سنة ٦٢٨ هجرية، واشتهر أمرها بين صوفية العراق، ثم نقلها الصوفية إلى الشام ومصر<sup>(١)</sup>.

وفي نسبة الحشيشة إلى حيدرة هذا يقول الشاعر الدمشقي محمد بن علي ابن الأعمى مفضلا الحشيشة على الخمر:

معنبرة خضراء مثل الزبرجد  
يميس على غصن من البان أملد  
كرقم عذار فوق خد مورد  
فتهفو إلى برد النسيم المردد  
فيطربها سجع الحمام المغرد  
فلا تستمع فيها مقال مفند  
ولا عصرت يوما برجل ولا يد  
ولا قربوا من دنها كل مقعد  
ولا حد عند الشافعي وأحمد

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر  
يعاطيكها ظبي من الترك أغيد  
فتحسبها في كفه إذ يديرها  
يرنحها أدنى نسيم تنسمت  
وتشدو على أغصانها الورق في الضحى  
وفيها معان ليس في الخمر مثلها  
هي البكر لم تنكح بماء سحابة  
ولا عبث القسيس يوما بكأسها  
ولا نص في تحريمها عند مالك

(١) المقرئى: خط. ج ٣ ص ٢٠٥ وما بعدها.

ولا أثبت النعمان تنجيس عينها وكف أكف الهم بالكف واسترح  
 فخذها بحد المشرفى المهند ولا تطرح يوم السرور إلى غد<sup>(١)</sup>  
 فالشاعر هنا ينسب الحشيشة إلى حيدرة، ويطلق عليها المدامة كأنها الخمر، ثم يتحدث  
 عن رائحتها وعن لونها، فهي مثل العنبر وخضراء مثل الزبرجد، ويتحدث عن مجلس  
 الحشيشة إذ يدور بها ظبي من الترك والحشيشة في كفه كأنها العذار فوق الخد المورد،  
 وأن شجرتها تهتز وتتمايل لأخف هبات النسيم، وأن الحمام تشدو على أغصانها فتطرب  
 العصون لتغريدها، وأن لها معان ليست في الخمر إذ لم تخلط بما كما تخلط الخمر، ولم  
 تعصر بالأرجل كما تعصر الخمر، ولم يتخذ القسيس من الحشيشة مادة لعبه كما يتخذ  
 من الخمر، كما أن المذاهب السنية المعروفة لم تنص على تحريم الحشيشة كما نصت على  
 تحريم الخمر، وأن حد الحشيشة ليس هو السيف كحد الخمر، ويختتم هذه المقطوعة  
 بالدعوة لتناول هذه المادة لطرح الهموم وجلب السرور، ونلاحظ في هذا البيت الأخير أنه  
 عبر عن تناولها بالكف، فالخمر تؤخذ بالكأس بينما الحشيشة تؤخذ بالكف.

ويقول الشاعر أحمد بن محمد بن رسام في نسبه الحشيشة أيضا إلى ابن حيدرة:

ومهفهف بادي النفار عهدته لا ألتقيه قط غير معبس  
 فرأيته بعض الليالي ضاحكا سهل العريكة ريشا في المجلس  
 فقضيت منه مآربي وشكرته إذ صار عن بعد التنافر مؤنسى  
 فأجابنى لا تشكرن خلانقى واشكر شفيحك فهو خمر المفلس  
 فحشيشة الأفراح تشفع عندنا للعاشقين ببسطها للأنفس  
 وإذا هممت بصيد ظبي نافر فاجهد بأن يرعى حشيش القنيس  
 واشكر عصابة حيدر إذ أظهروا لذوى الخلاعة مذهب المتخمس  
 ودع المعطل للسرور وخلصني من حسن ظن الناس بالمتنمس<sup>(٢)</sup>

فالشاعر هنا يتحدث عما يصيب من يتناول الحشيشة من ضعف في إرادته، فهو يصبح  
 ريشا سهل العريكة، وأن الحشيشة رخيصة الثمن بحيث سماها الشاعر هنا خمر المفلس،

(١) المقرئى: خطط ج ٣ ص ٢٠٥ وما بعدها.

(٢) المقرئى: خطط ج ١ ص ٢٠٦.

وأن جماعة حيدر هم الذين أظهروا هذه المادة، ونلاحظ أن قوله إن عصابة حيدر أظهروا مذهب المتخمس يذكرنا بما جرى الآن بين العامة واصطلاحهم «خَمْس» أى مشاركة أكثر من واحد فى تدخين السيجارة الواحدة.

ولكن فى كتاب رسالة زهر العريش فى الكلام عن الحشيش<sup>(١)</sup> لبدر محمد بن بهادر الزركشى أن هذه المادة ظهرت على يد أحمد القلندرى ولذلك سميت «القلندرية» ويقول ابن تيمية إن هذه المادة ظهرت فى أواخر المائة السادسة وأوائل المائة السابعة حين ظهرت دولة التتار ومنها انتقلت إلى بغداد، وهناك رواية أخرى وهى أن هذه المادة إنما عرفت أول ما عرفت بالهند وأن أول من تناولها رجل صوفى كان يسمى «البير رتن» فهو أول من أظهر لأهل الهند أكلها ولم يكونوا يعرفونها قبل ذلك، ثم شاع أمرها فى بلاد الهند، ومنها انتقلت إلى اليمن ثم فشى أمرها إلى أهل فارس، ومنها إلى العراق ومصر سنة ٦٢٨ هـ<sup>(٢)</sup>. ولكن أمر الصوفى الهندى هذا مختلف فيه اختلافا كبيرا جدا، فقد قيل إن هذا الرجل شاهد الرسول عليه السلام وعاش حتى القرن السابع الهجرى مما أدى بالذهبى إلى أن يكذب أمره ويقول عنه إنى أول من كذب بهذا الرجل وأنه شيخ مفتر دجال كذاب قاتله الله تعالى<sup>(٣)</sup>. ومهما يكن من شىء فإن قصة الحسن بن الصباح زعيم الإسماعيلية النزارية واستخدامه هذه المادة المخدرة بين أتباعه وانتقال هذه المادة فى القرن السادس إلى إسماعيلية الشام وورود ذكر هذه المادة فى رسالة القاضى الفاضل بتاريخ سنة ٥٦٩ هـ؛ إذ نعت راشد الدين سنان بأنه زعيم الحشيشية مما يدل على أن بعض الأفراد، أو بعض الطوائف فى فارس وفى الشام قد عرفوا هذا المخدر قبل أن ينتقل إلى مصر، ولعل الصوفية الذين كثر قدومهم إلى مصر فى عهد صلاح الدين، والذين هيات لهم الدولة سبل الحياة اللينة، وسبل العيش الرغيد فى كنفها هم الذين أدخلوا هذه المادة إلى مصر، وقد اشتهر بستان الكافورى بزراعة هذه المادة حتى عرف البستان بحشيشة الفقراء، وعرفت الحشيشة الكافورية نسبة إلى هذا البستان.

وفى ذلك يقول الشاعر زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر الحنفى:

وخضراء كافورية بات فعلها      بألبابنا فعل الرحيق المعترك  
إذا نفحتنا من شذاها بنفحة      تدب لنا فى كل عضو ومنطق

(١) نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٤٤٤ مجاميع.

(٢) المقرئى: الخط ج ٣ ص ٢٠٧.

(٣) ابن شاعر: فوات الوفيات ج ١ ص ١٦١.

غنيت بها عن شرب خمر معتق وبالذلق عن لبس الجديد المزوق<sup>(١)</sup>  
 فهو يصفها بأنها خضراء، وأنها كافورية أى منسوبة إلى بستان الكافورى، وأنها تفعل  
 فى الألباب ما يفعله الخمر المعتق، وأن رائحتها تدب فى الأعضاء والمفاصل، وأنه غنى بها  
 عن شرب الخمر، وأنه ليس فى حاجة إلى أن يرتدى أجمل ملابسه لمجلسها بل يستعيز  
 عنها بالذلق.

ولابن الصائغ عدة مقطوعات فى الحشيشة من ذلك قوله:

أعطنى خضراء كافورية يكتب الخمر لها من جندها<sup>(٢)</sup>  
 أسكرتنا فوق ما تسكرنا وربحنا أنفسنا من حدها  
 ويقول أيضا:

قم عطنى خضراء كافورية قامت مقام سلاقة الصهباء  
 يغدو الفقير إذا تناول درهما منها له تيهه على الأمراء  
 وتراه من أقوى الورى فإذا خلا منها عددناه من الضعفاء  
 ويقول أيضا:

عاطيت من أهوى وقد زارنى كالبدر وافى ليلة البدر  
 والبحر قد مد على متنه شعاعه جسرا من التبر  
 خضراء كافورية رنحت أعطافه من شدة السكر  
 يفعل منها درهم فوق ما تفعل أرطال من الخمر  
 فراح نشوانا بها غافلا لا يعرف الحلو من المر  
 قال وقد نال بها أمره وبات مردودا إلى أمر  
 قتلتنى! قلت: نعم سيدى قتلين بالسكر وبالبحر  
 فالشاعر هنا جعل مجلس الحشيشة مثل مجلس الخمر، فهو يعاطيها من أحب،  
 ووصفها بأنها خضراء، وأنها كافورية، وأن الدرهم من الحشيش يفعل أكثر مما يفعله  
 أرطال من الخمر، وأن الذى يتعاطى الحشيش يصبح فى نشوة غافلا عن كل شىء،  
 فلا يميز بين الحلو والمر.

(١) المقرئى: خطط ج ٣ ص ٤٠.

(٢) ابن شاعر: فوات الوفيات ج ١ ص ١٦٣.

ويقول الشاعر نور الدين أبو الحسن الينبعي أحد شعراء الصوفية :

رب ليل قطعته ونديمي      شاهدى وهو مسمعى وسميرى  
مجلسى مسجد وشربى من خض      راء تزهو بحسن لون نضير  
قال لى صاحبى وقد فاح منها      نشرها مزريا بنشر العبير  
أمن المسك قلت ليست من المس      لك ولكنها من الكافورى<sup>(١)</sup>

فالشاعر قطع ليلة مع نديمه فى مجلس هو المسجد عنده، وكان شرابه الخضراء، وقد فاح منها نشرها، ثم نسب الحشيشة إلى بستان الكافورى. هكذا أصبحت مادة الحشيشة من موضوعات الشعر، وأخذ الناس يتحدثون عن مدى تحريم هذه المادة، ووضعت بعض الفصول والرسائل فى تحريم الحشيشة، وكما فضل بعض الحشيشة على الخمر، نرى شعراء آخرين يهجون الحشيشة، فمن ذلك قول الشاعر إبراهيم بن سليمان بن حمزة المعروف بجمال الدين بن النجار نقيب أشراف الإسكندرية المتوفى سنة ٦٥١ هجرية:

لحا الله الحشيش وآكليها      لقد خبثت كما طاب السلاف  
كما تسبى كذا تضى وتشفى      كما يشقى وغايتها الخراف  
وأصغر دائها والداء جم      بغاء أو جنون أو نشاف<sup>(٢)</sup>

فالشاعر هنا يعدد ما يصيب مدمن الحشيشة، فهو إما ينتهى به الأمر إلى البغاء، أو الجنون، أو إلى مرض عقلى هو جفاف يصيب المخ وكلها أمراض لا شك من الأمراض المستعصية.

ويقول الشاعر الإسعردى فى تفضيله الخمر على الحشيش:

فديتك نور الحق قد لاح فاهتد      نديمي وكن فى اللهو غير مقلد  
أترضى بأن تمسى شبيهه بهيمة      بأكل حشيش يابس غير أرغد  
فدع رأى قوم كالدواب ولا تذر      سوى درة كالكوكب المتوقد  
مدام إذا لاح للركب نورها      وقد ضل ليلا عاد بالنور يهتدى  
حشيشتهم تكسى المهيب مهانة      فتلقاه مثل القاتل المتعمد  
وتبدو على خديه مثل اخضارها      فيضحى بوجه مظلم اللون أربد

(١) القرزى: خطط ج ٣ ص ٤٢.

(٢) ابن شاعر: فوات الوفيات ج ١ ص ٥.

وتفسد من ذهن النديم خياله  
وخمرتنا تكسو الذليل مهابة  
وتجلى فتجلى هم كل منادم  
وتبدو فيبدو سره وتسره  
وفيهما على رغم الحشيش منافع  
وفى خيرها للناس كل مضرة  
وحقك ما ذاق الحشيش خليفة  
ولا جد فى وصف لها قط شاعر  
ولم تضرب الأوتار فى مجلس لها  
أنخضب من غير المدامة راحة  
بها ينثنى المعشوق نشوان مائلا  
يعاطيك راحا مثلها فى رضابه  
وبنعم بالوصل الذى كان باخلا  
أعن مثلها يا صاح بصبر عاقل  
ولولا فضول الناس ما بت صاحيا  
فخذها ولا تسمع مقالة لائم

فينظر مبيض الصبح كأسود  
وعزا فتلقى دونه كل سيد  
ويروى بها من شربها قلبه الصدى  
فيشبهها لونا بخذ مورد  
فقل فى معانيها وصفها وعدد  
فحدث بكل سوء عن وصفها الردى  
ولا ملك فاق الأنام بسؤدد  
بتنميق ألفاظ كألحان معبد  
وما ذاك إلا للشراب المورد  
إذا ما بدت فى الكأس تجلى على اليد  
بقد كغصن البانة المتأود  
ومبسمة مثل الحباب المنضد  
به ثم ينسى كل ما كان فى الغد  
لقد كنت فى تركى لها غير مهتد  
ولم أستمع فيها مقال المفند  
وإن حرمت يوما على دين أحمد<sup>(١)</sup>

فالشاعر الأسعردى يرى أن أكل الحشيشة هو أقرب إلى البهيمة منه إلى أى شىء آخر، وأن الذين يدافعون عنها هم كالدواب، وأن أكلها يكسى مهانة بعد هيبة، ويصبح منظره منظر القتلة السفاكين، فعلى خديه اخضرار، ووجهه مظلم اللون كثيب، وتفسد الذهن والخيال، فيرى الأبيض أسود، وأن الحشيش لم يتناولها ملك من الملوك العظام، ولم يصفها شاعر بما وصف به الخمر، ولم يصحب شربها نغمات الموسيقى، وذلك كله بخلاف الخمر ومجالسها، فالخمر عنده أفضل من هذه الحشيشة، ومن الطريف أن هذا الشاعر نفسه ناقض قصيدته السابقة بقصيدة أخرى فضل فيها الحشيش على الخمر، فهو يقول:

ودونك فى فتياك غير مقلد  
مقالة ذى رأى مصيب مسدد  
أتشرب جهرا فى رباط ومسجد

لك الخير لا تسمع كلام المفند  
سألت عن الخضراء والخمر فاستمع  
وحقك ما بالخمر بعض صفاتها

(١) ابن شاعر: فوات الوفيات ج ٢ ص ١٦٢.

بأبيض وورق أو بأحمر عسجد  
تنزهه عن بيع بغير التزهده  
وخمرهم كالمارج المتوقد  
تذكر أسرار الجمال الموحد  
المعالم فى معراج فهم مجرد  
هموم ولا يحظى بها غير مهتدى  
الذنان بمختوم من القار أسود  
وفى القيىء إذا تبدو كزق ممدد  
لعمرى ولا تدعى لديهم بمفسد  
ويعتاض عن حمل الزجاجة باليد  
ذليلا وتنجو من نديم معربد  
ولا تقى فيها ليالى التعبد  
وتسلم من جور الولاة ولا ندى  
ظريفا ولا يغشاك فرط تبدل  
وتمنح من كل بحسن التودد  
من الحاسد الواشى على غير موعد  
وهيهات يحصى فضلها لمعدد  
غزال كغصن البانة المتأود  
يغنى فيزرى بالحمام المغرد  
ويبسم عن ثغر كدر منضد  
يصدك عنها واعص كل مفند<sup>(١)</sup>

عليك بها خضرا غير مباتع  
ولكن على رغم المدام هدية  
رياضية يحكى الجنان اخضرارها  
مدامهم ينسى المعانى وهذه  
هى السر ترقى الروح فيها إلى نرى  
بل الروح حقا لا يحل بربعاها  
ولا داسها العصار عمدا وذنس  
ولا تتعب الأبدان عند نزالها  
ولا تستخف الناس عقلك بينهم  
وفى طرف المنديل يوما وعاؤها  
وتخلص من إثم وحد ولا ترى  
وتشربها فى العسر واليسر دائما  
وتأمن كبسات الحماية وكيدهم  
وتغدو ذكيا فاضلا ذا نباهة  
وتصبح عند الناس غير مبغض  
وإن ذاقها المعشوق وافك خلصة  
ومن فضلها فى الطب جودة هضمها  
ولا سيما إن كان فيها منادى  
ينادم بالشعر اللطيف وتارة  
يغازلنى سرا بعينى غزالة  
فلا تستمع فيها مقالة عازل

ومن كثرة إقبال المصريين على تناول هذه المادة المخدرة بعد أن انتقلت إليهم عن طريق الصوفية، أمر السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب أن يمنع الحشيشة فى البستان الكافورى، وذات يوم دخل البستان فرأى فيه منها شيئا كثيرا، فأمر بأن يجمع، وأن يحرق، فقال أحد الشعراء فى هذه الواقعة، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وستمائة للهجرة:

(١) ابن شاعر: فوات الوفيات ج ٢.

صرف الزمان وحادث المقدور  
ما سالما حيا ولا ميتا ولا  
لهفى وهل يجدى التلهف فى ردى  
أخت المذلة لارتكاب محرم  
جمعت محاسن ما اجتمعن لغيرها  
منها طعام والشراب كلاهما  
هى روضة إن شئتها ورياضة  
ما فى المدامة كلها منها سوى  
كلا ونكهة خمرة هى شاهد  
أسفا لدهر غالها ولربما  
جمعت له الأشهاد كرما أخضرا  
زفوالها نارا فخلنا جنة  
ثم اكتست منها غلالة صفرة  
فكانها لهب اللظى فى خضرة  
جارى النضار على مذاب زمرد  
لله درك حية أو ميتة  
أوذيت غير زميمة فسقى الحيا  
عندى لذكرك ما بقيت مخلدا

تركا نكير الخطب غير نكير  
طودا سَمَا بِل دكدكا بالطور  
طرب الغنى وأنس كل فقير  
قطب السرور بأيسر الميسور  
من كل شىء كان فى المعمور  
والبقل والريحان وقت حضور  
يغنى بها عن روضة وخمور  
إثم المدام وصحبة المخمور  
عدل على حد وجلد ظهور  
ظل الكريم بذلة المأسور  
كعروسة تجلى بخضر حرير  
برزت لنا قد زوجت بالنور  
فى حضرة مقرونة بزفير  
منها وطرف رمادها المنثور  
تركا فتيت المسك فى الكافورى  
من منظر بهج غير نظير  
تربا تضمن منك ذوب عبير  
سح الدموع ونفثة المصدر<sup>(١)</sup>

إذن أصبحت مادة الحشيشة المخدرة من موضوعات الشعر المصرى منذ العصر الأيوبى،  
وأصبح شأنها فى الأدب شأن الخمر التى عرفت فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى،  
وكما أن الصوفية جاءوا بآراء جديدة وتعاليم جديدة كانت من مواد الشعر، كذلك جاءوا  
بالحشيشة وقالوا فيها شعرا، ولكن الأوصاف التى وصفت بها الحشيشة كانت محدودة  
ضيقة، ولم يستطع الشعراء أن يصفوا مجالس الحشيشة ويطنبوا فى وصفها كما فعلوا مع  
مجالس الخمر، بل أخذ شعراء الحشيشة مجالس الخمر وأطلقوها على مجالس الحشيشة

(١) القرىزى: خطط ج ٣ ص ٤٠.

بحيث لا نستطيع أن نفرق بين مجالس الخمر ومجالس الحشيشة في هذه الأشعار التي وصلتنا، ولعل السبب في ذلك أن الموضوع كان جديداً، وأن المادة نفسها لم تكن منتشرة إلا بين الصوفية أو بين عدد قليل من الناس، لهذا لم يفسح للشعراء المجال في أن يتحدثوا عنها كما تحدث الشعراء عن الخمر. ومهما يكن من شيء فإن هذا العصر الأيوبي جاء بفن جديد من فنون الشعر وهو «فن الحشيشيات» إن صح هذا التعبير، وسرى في عصر الماليك تطور هذا الفن وذيوعه، وكثرة الشعراء الذين تحدثوا عنه كما تعددت صفات الحشيشة وأثرها في النفس.

